تحدّة أمانة بني إسرائيل
موضوع موحّد لسفر القضاة

رئيس التحرير

مقدّمة

يتضاعف اعتراف البحاثة باطّرادٍ بأن سفر القضاة يمثّل مؤلفًا ذات وحدة أدبية خاصة به. يؤكّد ذلك وجود لاهوت هو في العمق وبوضوح اشتراعي، وأسلوبٌ يُبرز العديد من نقاط التلاقي مع أجزاء عدة من التاريخ الاشتراعي. مع هذا، وفي الغالب، يسير مجرى الأحداثِ وطبيعةُ عَمَلِ الله في سفر القضاة وفق صيغة اشتراعية هي التالية : **الطاعة تأتي بالبركة، والمعصية تسبّب اللعنة**. باستثناء بعض الحالات، يعمل الله برحمته، وليس وفق صيغ جامدة منحوتة على صخر. إضافة إلى ذلك، يشير الترتيب المميَّز للأغراض والمواضيع في مختلف الروايات وتشابكُها إلى تخطيط مقصود. يُساهم كلّ جزء من الكتاب في إبراز النزعة الكنعانية لدى المجتمع الاسرائيلي في المرحلة التي تلت مباشرة الاحتلال والاستيطان بقيادة يشوع بن نون.

مدخل (١:١-٢:٥)

يمهّد مدخل سفر القضاة الطريق للخطّة التي ينبغي بسطها، عبر وصف الأوضاع السياسية في اسرائيل، في الزمن الذي تلى مباشرة موت يشوع. إنّ نبرة ١:١-٣٦ الحَوليّة هي نسبيًا دنيوية، بالمقارنة مع باقي الكتاب. لكن بذارَ معضلات مستقبلية هو مخزون في استعراض الثروات القبلية. إن الانطباع المهيمن الذي يتركه هذا الجزء هو التعارض بين قبائل يهوذا ويوسف التي تختبر حضور الله، من جهة، وبين باقي القبائل التي ترفض إلغاء الكنعانيين أو تعجز عن ذلك، من جهة ثانية. وحتى لو استعبدت السكان الأصليين، فإن المقطع ٢:١-٥ يوضح أن هذا التصرّف كان نقضًا واضحًا للعهد (رج تث ٧:١-٥).

مقدمة كتاب المُنقِذين (٢:٦-٣:٦)

إنّ جدول أعمال الراوي هو واضح في إعلان فكرة سفر القضاة اليي يجب اتّباعها. فالخلل الروحيّ الذي برز بعد موت الجيل الذي كان قد شهد أعمال الله الخلاصية القديرة هو مرسوم بوضوح. من دون ذكر واضح لما يتطلّبه الله من بني اسرائيل، كان هؤلاء يجحدون إيمانهم بسرعة، عائدين إلى آلهة الكنعانيين المحيطة بهم. إنّ اهتمامات الراوي هنا هي عديدة :

- الطبيعة الدورية للأحداث التاريخية في إسرائيل؛
- السرعة التي بها يدبّ الفساد الروحي (٢:١٠)؛
- وضع الأمّة الذي يتردّى تدريجيًّا مع تبدل مراحل المنقِذين (٢:١٧-١٩)؛
- أسباب المشكلة : الفشل في الاحتفاظ بذكرى حيّة لأعمال الله الخلاصية (٢:٦-١٠؛ ٣:٧)، والتزاوج مع الكنعانيين (٣:٦).

هذا الطرح المُعلَن يشكل النقطة الدينية الأولية للروايات التي تلي. **إنّ كنعنة المجتمع الاسرائيلي هي جوهريًا مسألة روحية.**

مقدّمات حلقات القضاة المنقِذين (٣:٧ و١٢؛ ٤:١؛ ٦:١؛ ١٠:٦؛ ١٣:١)

إنّ الاهتمام بالمسألة الدينية الأساسية في هذه المرحلة هو محفوظ من خلال التعليق الافتتاحي لكلٍّ من حلقات المنقِذ: «وصنع بنو اسرائيل الشر في عيني الرب». هذا التقييم يفيد في شبك الأخبار المتفرقة مع بعضها وفي توحيد مجمل «سفر القضاة المنقِذين».

قصص القضاة (٣:٧-١٦:٢١)

بالرغم من أن كل روايات القضاة تتبع إطاراً أدبيًا أساسيًا، فإن كل واحدة منها تركز على ناحية مختلفة من دور القضاة المنقذين في إسرائيل. من الواضح من ١٠:١-٥ و١٢:٨-١٥ أنّ الرّاوي هو متنبّه لعدم اكتمال الرواية. لقد اختار بعناية قصصًا من القضاة تساعده على توسيع فكرته. ولكن مع كلّ من القضاة هناك تدهور إضافي أكيد في الجو الديني والاجتماعي:

□ رواية **عُتنيئيل** (٣:٧-١١) هي نموذج، تشدد على الدور الإلهي في الإنقاذ من كوشان-رِشتعايم.

□ قصة **أهود** (٣:١٢-٣٠) تركّز على استراتيجية المنقِذ الذكية. بالرغم من أنّ ناشر سفر القضاة لا يقوم بأي تعليق أخلاقي على تصرّف أهود، فإنّ غشّه وقساوته يبدوان كجزء من الأنماط الكنعانية.

□ **شمغر** (٣:٣١) هو لغز. يوحي قِصرُ الخبر بشيء من الإحراج من جهة المؤلّف، كون الأمّة كانت قد عادت تسأل المساعدة من غير إسرائيليين.

□ **دبوره** (٤:١-٥:٣١) هي الاستثناء الذي يثبت القاعدة، لكنها ليست قاضيةً منقذةً كالباقين؛ إنها نبيّة تخدم الله بنشاط قبل دعوتها باراق للمساهمة في الإنقاذ. إن الموضوع الأنثوي هو مقصود، إذ يسلط الضوء على الأوضاع غير المعهودة في الأمة. باراق ذو إرادة ضعيفة ومتردد. القيادة من قِبَل الرجال هي ببساطة غير مسعفة وغير مجدية.

□ أمّا **جدعون** (٦:١-٨:٣٥)، فالمكان المكرّس له كبيرٌ. من خلال روايات اختباراته، يقدم المؤلّف لمحة مباشرة حول بيوت إسرائيل وقراه. ما يراه هناك ليس مشهدًا مشجّعًا. توجد مذابح البعل خلف دُور الشعب، وعندما تُهدَم، يصطفّ أهل المدينة وراءَ إله كنعان. يوصف جدعون بالذات بأنه قليل الإيمان، ويحتاج إلى سلسلة من العلامات قبل أن يدخل أخيرًا في المعركة ضد المِديَنيين. قبل تحقيق الانتصار، رذل علنًا عَرْضَ مَلَكية وراثية، مرفقًا ذلك بتعليق تقوي: «ليحكم الربُّ» («مَشَلْ»). لكن من الواضح أنه، في ذهن الرّاوي، هذا الرذلُ لم يُؤخَذ على محمل الجَدّ. بدءًا من ٨:٤ وما بعد، أخذ جدعون يعمل أكثر فأكثر كمَلِك، ممارسًا البطشَ والطغيان على أبناء مملكته، تاركًا مصالحه الشخصية تحجب مصالح القبائل والوطن. بعد رفضه العلنيّ (ولكن المزيَف) للمَلَكية الوراثية، بدت أعمالُه بوضوح أعمالَ ملوكٍ لا يقيّدهم قانون أو عَرْف: طالبَ بمعظم مغانم الحرب، ولبس ثيابًا أرجوانيةً، وأقام مركز عبادة وطني منحرف، واقتنى العديد من النساء، ودعا ابنه «أبيملك» (أي: «أبي هو ملك»). هذا هو جدعون الحقيقي، الرجل الذي لم يكن عنده أي حرج في عبادة الأصنام، ولا في الاقتران بنساء من شكيم.

□ **يفتاح** هو وجه مأساوي. بدايةً، هو ضحية بيئةٍ وطريقة كنعانيَّتَين، ابن عاهرة نبذته عائلته بالذات، وأُجبِرَ على أن يعيش كقطّاع الطرق. عندما دعي ليتولى قيادة شعبه، لم يتردد في استغلال الفرصة لمصلحته السياسية الشخصية. في النهاية، وبالرغم من ذلك، أصبح يفتاح ضحية كلمته هو؛ فلقد بدا نذرُه المتسرّع كنوع من الصفقات التي كان الكنعانيون يتبادلونها مع آلهتهم ليتأكدوا من إنعامهم عليهم. وفي حين يشدد النص على المصيبة الشخصية التي سبّبها له إيفاؤه نذره، من المحتمل أن يكون قد نظر إلى ذلك على أنه البرهان الأسمى على تقواه.

□ يجسّد **شمشون** كل ما هو خطأ في إسرائيل. فكنذير للرب، فرَّط بدعوة الله له، مستعملاً إياها في العمق لغايات خاصة وشخصية. كل شيء حوله يبدو أنه خطأ : فلقد تزوج من فلسطية، متحدّيًا عن سابق قصد وتصميم ذويه؛ ارتبط مع العدو الذي كان ينبغي الإنقاذ منه؛ كانت له مصالح مع مومس فلسطية ومع دليله. حتى صرخته الأخيرة لطلب مساعدة الله تبدو وكأنها نابعة من اهتمامات شخصية بحتة (١٦:٢٨؛ رج ١٥:١٨). إن الرأي المعاكس الشائع ، القائل بأنه حقق في موته أكثر ممّا حقق في حياته، هو إلى حدٍّ كبير إضافة لاحقة.

من المهم أنّه، بالنسبة إلى الرّاوي، كان القضاة في الغالب جزءًا من معضلة إسرائيل أكثر من مساهمين في حلّها. تبيّن حياتهم أنّ النزعة الكنعانية في المجتمع الإسرائيلي على كل المستويات كانت سيدة الموقف. لم يرتفع أيٌّ منهم إلى مستوى تحدي هذا المنحى. وعندما حصل هذا، تمّ عبر ملاك («ملآخ»، ٢:١-٥)، أو نبي («نبيء»، ٦:٧-١٠)، أو مباشرة من الرب (١٠:١٠-١٦). تعاطى القضاة مع أعراض الانحراف الروحي، لكن لا تأكيد في سفر القضاة على أنّ أحدهم واجه الأسباب الكامنة وراء ذلك (رج صموئيل في ١صم ٧:). إذا كان هناك شيء ما إيجابي قد حصل وحفظه لنا السفر، فيكون قد تَمَّ رغمًا عن القضاة، أكثر منه بفضلهم. حتى انقضاض روح الرب على القاضي هو أمر غير معتاد. وحيث الشعب كان غيرَ معدّ مسبقًا لتحمل القيادة، كان الرب يجندهم لذلك.

ميخا وبنو دان (١٧:١-١٨:٣١)

تُبرز هذه القصة خطوطًا عديدة من المسلك الأخلاق والروحي المنحط في حياة اسرائيل :

- فقدان الاستقامة الشخصية في بيت افرائيم (١٧:١-٣)؛
- إقامة عبادات خاصة مناهضة لتيار اليهوهية (١٧:٤-٥٠)؛
- قلة التدبير والانتهازية لدى الكهنوت اللاوي (١٧:٧-١٣؛ ١٨:٢٠)؛
- طلاقة اللسان التي بها يقومون بواجباتهم (١٨:٥-٦)؛
- استغلال بني دان لمواطنيهم دون أي وخز ضمير (١٨:١٧-٢٠)؛
- الميل التباعدي لدى القبائل لتعمل بطريقة مستقلّة في الأمور الدينية (١٨:٢٧-٣١).

خاتمة

كلّ هذا يؤمّن المسرح للمشهد الأخير في الدراما. لا يعمل بنو اسرائيل فقط كالكنعانيين؛ بل، بالنسبة إلى الرّاوي، هذا هو حصراً ما هم عليه : **جحودٌ تليهِ دينونةُ اللهِ لهم**. جواب بني إسرائيل على تقطيع الفتاة بشكل وحشي في ١٩:٣٠ي هو دعوة الراوي إلى قرّائه ليعتبروا، وينتصحوا، ويرفعوا الصوت عاليًا ضدّ هذا الأمر . في المراحل الأخيرة، يُنسَب انحطاط الأمّة إلى فقدان سلطة مركزية، وإلى روح الفردية في المجتمع، فوضى أصبح كل إنسان فيها مقياس أخلاقه الخاصة (١٧:٦؛ ٢١:٢٥). لا أحد، ولا حتى الرب، هو ملك في هذه البلاد. كل متطلبات العهد الأولية قد تم تناسيها؛ بحكم الواقع، كل واحد من المبادئ المتضمَّنَة في الوصايا العشر قد تمّ نقضها.

إن الوضع الروحي للشعب الساكن في أرض كنعان في نهاية مرحلة الاستيطان، هو ذاته كما كان في البدء. لم يعد هناك من فرق إذا ما احتل الأرضَ فريقٌ جديد من الشعب. من خلال رسم الرّاوي لهذه الصورة، هو يبرز اهتماماته الرئيسية بوضوح. فهمُّه الأوليّ لم يكن أن يرسم تطور إسرائيل السياسي، بل أن يُبرز تراجعه الروحي. من خلال عرضه لنزعة الانحطاط الشاملة للمجتمع الاسرائيلي، هو يدعو كل السائرين في هذا المنحى في أيامه إلى الاعتبار ورَفْعِ الصوت. بفعله هذا، استحق مكانَه الصحيح بين «الأنبياء السابقين لإسرائيل».